والدة نبوليون

في الليلة التي ولدت فيها ليتيتيا رامولينو ابنها نبوليون حلمت ان العالم استحال الى شعلة من نار . وقد يكون هذا الحلم أقرب الى نبوة منه الى شيء آخر

قال المؤرخ الفرنسي ميشله في كتابه « تاريخ القرن التاسع عشر » إن نبوليون اكتسب كل شيء من امه التي تعهدته وغرست فيه ميوله الى المجد . وقال نبوليون نفسه في جزيرة القديسة هيلانة : «إن امي الطيبة هي امرأة ذات روح وموهبة وهي الى ذلك تنطوي على اخلاق خطورة شريفة واني لمدين لها بنجاحي وبكل ما عملت من الحسنات» وقال المؤرخ الفرنسي تين إن والد نبوليون شارل بوناپارت لم يترك لولده إلا مرض المعدة الذي اودى به فذقن نبوليون المنذلقة — دليل الادارة — وشفتاه المنطبقتان ، وأنفه المحدوب ، ونظراته الصارمة الآمرة هي جميعها كذقن امه وشفتيها وأنفها ونظراتها

ولما انتصرت فرنسا على كورسكا في العام ١٧٦٨ وهرب باولي الى انكلترا أراد شارل بوناپارت ان يلحق به . الا ان ليتيتيا منعته من ذلك وأصرت عليه بأن يبقى في كورسكا فلم يجد بدًّا من النزول على رغبتها . وفي الخامس عشر من شهر اغسطس (آب) من العام ١٧٦٩ عاد الزوجان الى اجاكسيو ، ولم تكد ليتيتيا ، وهي في العشرين من عمرها ، تدخل الى منزلها حتى شعرت بألم المخاض ، وكان الوقت لم يفسح لها في الوصول الى سريرها فوضعت نبوليون على مقعد قريب

شاء الكاتب ستندال ان يبدع اسطورة غريبة فراح يقول إن ليتيتيا وضعت نبوليون على سجادة تمثل القيصر ، ولكن ليتيتيا لم تلبث ان كذبت هذا الزعم قائلة ان ولدها لم يكن بحاجة الى ذلك

في العام ١٧٨٥ توفي والد نبوليون فلم يبق لهذا الاخير سوى والدته ليتيتيا التي صرفت عنايتها له وأنقذته مرتين من الانتحار اذ كان من متعشقي قراءة « فرتر » ومرة من سم سكبته له احدى النساء المهجورات . ومشت دواليب المجد في مركبة نبوليون فاستوطنت والدته باريس ، إلا ان نبوليون كان قد اصبح بغنى عنها . يا له من جاحد ! ولما اتصل بها انهُ يرغب في قتل الدوق دانكيان ، آخر عقب من سلالة كونده ، خشيت

والدة نبوليون

نقلاً عن صورة زيتية لجيرار

مقتطف دسمبر ١٩٣١

امام صفحة ٤٦٨

عاقبة الامر وأرادت ان تحول بينه وبين تلك الجريمة بقولها لهُ : « ستقع في الهوة التي تحفرها اليوم تحت اقدام اسرتك ! » إلاّ انها لم تفلح . وانتقل دم الدوق دانكيان كاهل الام ليتيتيا فغادرت باريس وسافرت الى روما حيث ولدها لوثيان . وفي روما بلغها صعود نبوليون العرش الامبراطوري فاضطربت سرًّا إذ تذكرت الملك البوربوني الذي كان اول المنعمين على ولدها وهو في مدرسة بريين

كانت ليتيتيا مقتصدة جدًّا وكانت دائمًا تقول : « إن الخواتم تزين الاصابع، ولكن الخواتم تسقط والاصابع تبقى » . أما محافظتها على البساطة القروية في طرق معيشتها فكانت تزعج ولدها الامبراطور ، فقال لها يومًا : « يجب عليكِ ان تنفقي مليونًا في كل سنة يا سنيورا ليتيتيا » فأجابتهُ : « حسنًا ، بشرط ان تعطيني مليونين » . ولامها بعضهم على عدّها قطع السكر وأخذها الكتب من غرفة القراءة كما لو كانت لا تزال في عهد البؤس فقالت له : إن ولدي يتمتع بمقام كبير ، فهو امبراطور — ولكن هذا لا يدوم

وكانت الى ذلك لا تزال محتفظة برفع الكلفة مع الامبراطور ، فذات يوم ، اثناء هذا إذ سمع والدتهُ تدعوه « نبوليون » — خاف — وأراد ان ينبهها الى ان الواجب يقضي عليها بتقبيل يده ، فقالت له بشموخ : « إنك لغريب الاطوار يا صاحب الجلالة ! فاعلم أني اوفر لك الاحترام اللازم امام الجمهور ، أما ما خلا ذلك فأنا امك وأنت ابني ، وعندما تقول أنت : « باريد » اجيبك أنا : لا اريد »

***

وكانت مواقع موسكو ، وليبزيك ، واحتلال الحلفاء لباريس ، واستعداد نبوليون للسفر الى جزيرة « إلبا » بعد اعتزاله الحكم في فونتينبلو . عند هذا تخلّى عنهُ الجميع : الملوك والملكات والامراء والمرشالية والقواد واخوته وأخواته ، ولم يبقَ له إلا والدته

قالت هذه لكياسريس ، القنصل القديم عند سقوط ولدها : « اذا انتهى الرجل بليل فسقوطه لا يحسب شيئًا ؛ اما اذا انتهى بجبين فسقوطه يكون كل شيء ! » وقالت لرجل آخر « لقد خسر البوربون كل شيء لأنهم لم يعرفوا ان يموتوا رافعي السلاح ! »

وقالت لابنتها كارولين التي حاولت ان تقنعها بأنها لم تستطع ان تمنع زوجها مورات عن الخيانة ما يلي : « كان يجب عليك إذن ان تحاربيه ! » . وقالت لماري لويز التي رجت منها ، قبل سفرها الى النمسا ، ان تحافظ على عهدها معها ، ما يلي : « ان ما تطلبينه يا حضرة السيدة يتوقف عليك وعلى تصرفاتك في المستقبل » . وبعد ان قدمت لولدها المال المقتصد الذي كان بين يديها لحقت به الى جزيرة « البا » لتكون عزاءه وسلواه

وتحرّك شيطان الامبراطور في تلك الجزيرة النائية ، فقال لوالدته ذات مساء

— إني مسافر هذه الليلة

فارتعشت الوالدة وسألته قائلة ،

— لتذهب الى أين ؟

— الى باريس ، فما رأيك ؟

كانت المرأة القديمة لا تبرح في ليتيتيا فقالت لهُ بفخر وشموخ :

— دعني أنسى أني والدتك ، فالسماء لا تسمح لك أن تموت بالسم أو في راحة ليست جديرة بك ، بل تريد أن تموت والسيف في يدك ! وإني لاطلب من الله الذي حرسك في مواقع عديدة أن يحرسك مرة بعد

وشاء الحظ العاثر أن يُقهر نبوليون وأن يستسلم الى انكلترا ليموت على صخرة نائية في جزيرة القديسة هيلانة ، فتوسلت والدته الى الحلفاء ليسمحوا لها في الذهاب اليهِ فلم يرضوا ، وأرادت أن ترسل اليهِ دراهمها فحظّروا عليها ذلك ، وحاولت أن تتسلم بنقل ولدها الى منفىً أخف وطأةً على جسمهِ الضعيف فرفضوا

واشتهت أخيراً بالائتمار على الحلفاء لإنقاذ نبوليون من الأسر وإنقاذها لأجل ذلك ملايينها الكثيرة حتى اضطرّ ديوان الكرسي الرسولي في روما — كانت ليتيتيا في روما يومذاك — أن يستفهمها عن ذلك فكتبت اليهِ تقول : « قل للبابا وليفهم الملوك إني لو كنت أملك تلك الملايين التي يلصقونها بي لما طلبت مساعدتهم ، فالاحزاب التي تريد ولدي كثيرة ، ولا يصعب عليَّ ، لو كنت غنية الى هذه الدرجة أن أسلّح اسطولاً كاملاً لأخرجهُ من الجزيرة التي جعله القدر أسيراً فيها »

وقالت لبعض الذين حاولوا ان يقنعوها بالكف عن إرسال دراهمها لولدها ما يلي : « ما همني ! عند ما تفرغ يدي من كل شيء أحمل عصاً وأذهب فأستندي الأكف لوالدة نبوليون »

إن التاريخ يستطيع أن يحسر رأسه أمام والدة كهذه

ولما دنت ساعة نبوليون الاخيرة قال هذا لطبيبهِ : « إني لشديد التعلّق بك ! لانك تبذل كل ما بوسعك لأجلي . ولكن هذا ضئيل أمام عطف الام وحنوها ! آه ! أمي ليتيتيا ، أمي ليتيتيا ! »

قال هذا وغطّى وجههُ بيديه

لم اعرف مشهداً أشد تأثيراً من مشهد نبوليون يحذو حذو القيصر على فراش الموت

فينادي « أمي » كما نادى كثير من جنوده في ساحات القتال وفي ساعة التخلي والنزع !

* * *

ان هذه المرأة الباسلة الجديرة بهوميروس ، أفلم يطالب بريام الشيخ أخيل بجثمان ولده ويذهب به الى طروادة ، وتنتهي الاليادة عند هذا ؟ وكما طالب بريام بجثمان ولده هكذا طالبت ليتيتيا الحلفاء برفات نابوليون ففي الخامس عشر من شهر اغسطس (آب) من العام ١٨٣١ كتبت من روما الى وزير خارجية بريطانيا العظمى تقول : « لم يبق ولدي بحاجة الى التكريم فله من اسمه ما يكفيه ، إلا إني بحاجة الى ضم بقاياه الى صدري . فباسم العدالة والانسانية أتوسل اليكم ألا ترفضوا رجائي ، فلقد أعطيت نبوليون لفرنسا وللعالم »

كان بريام أسعد منها حظاً لانها لم تنل تلك البقايا العزيزة التي كانت ملكاً لفرنسا التي وقفت لها ، بعد عشرين سنة ، ضريحاً خالداً تحت قبة مجيدة . ولم تتمتع بمشهد عودة رفات ذلك الذي اعطته لفرنسا وللعالم ولا برؤية تلك الاسهة الساحرة التي عاد بها

عاشت والدة نبوليون رافعة النفس والجبين ، فبعد أن مات نبوليون كانت ماري لويز تقوم بسياحة في روما وحدثتها نفسها بمقابلة الام ليتيتيا إلا أن هذه رفضت قائلة « ألا فلتعلم هذه المرأة أن مكانها يجب أن يكون في سنت هيلين وليس في روما ! » ومنعها ولاة الامر الاذن بالدخول الى فرنسا فأبت ذلك لان هذا الحق قد حصر فيها دون ابنائها وقالت : « لم اهجر أولادي في بؤسهم وآلامهم يوماً من الايام ، ولست اهجرهم اليوم . وإني لأؤثر أن أبقى منفية من فرنسا معهم على أن أعود اليها وحدي »

كان مخدعها في روما شبه معبد أهلي فصورة زوجها كانت معلقة فوق سريرها وكانت تماثيل أولادها تحيط بها من جميع الجهات . اما تمثال نبوليون فكان اكبر حجماً من سواه

في اليوم الثاني من شهر فبراير من العام ١٨٣٦ ماتت والدة نبوليون عمياء ، ولها من العمر ست وثمانون سنة

دفنت اولاً في سيفيتا فيكشيا بالقرب من كورسكا ، ثم نقل جثمانها الى أجاكسيو حيث يرقد اليوم في كاتدرائيتها تحت قطعة من الرخام الاسود حفرت عليها هذه الكلمات :

هنا ترقد ماريا ليتيتيا ارمولينو بونابرت . إلا أن تابوتها يحمل صفيحة مكتوباً عليها لقب المجد الذي كانت تؤثره على سواه وهو :

ليتيتيا والدة نبوليون

كانت هذه المرأة تقول بفخر وشموخ : انا اكثر من الامبراطورة ، انا والدة نبوليون !

بيروت الياس ابو شبكة